كلية التربية

كلية معتمدة من الهيئة القومية لضمان جودة التعليم

إدارة: البحوث والنشر العلمي (المجلة العلمية)

=======

أسباب النزول عند الإمام البغوي

بين النظرية والتطبيق

إعـــــداد

د/ مطيعة بنت هزاع العنزي

أستاذ مساعد – قسم الدراسات الاسلامية

كلية التربية والادآب –جامعة تبوك

mu-alenazi@ut.edu.sa

﴿ المجلد السادس والثلاثون – العدد التاسع – سبتمبر ٢٠٢٠م ﴾

http://www.aun.edu.eg/faculty_education/arabic

ملخص البحث

يسعى هذا البحث إلى الكشف عن مدى اعتماد المفسرين على أسباب النزول في فهم النص القرآني ،فإن لمعرفة أسباب النزول أهمية كبرى في فهم النص وتفسيره ، ولهذا حرص المفسرون على الاعتماد على أسباب النزول كأصل من أصول التفسير ، واختلفت مناهجهم في تطبيق هذا الأصل في التفسير ، فمنهم من التزم – عند التطبيق – بما تحرر لدى الجمهرة من علماء علوم القرآن من قواعد وأصول نظرية تضبط التعاطي مع أسباب النزول عند تفسير النص القرآني ، فلم يعتمد من أسباب النزول إلا ما صح نقله ، وما كان مزامنا من الأحداث لنزول القرآن لا قبله ولا بعده ، غير واقف بدلالة الآية على سبب نزولها فقط ، بل يتجاوز هذا السبب ، فيجعل العبرة بعموم دلالة اللفظ القرآني لا بخصوص سبب نزوله ، ورأينا من تعامل مع أسباب النزول دون مراعاة لهذه الضوابط فأغرق في الشطط لدرجة أنه ربما اعتبر قصة قبل الإسلام سببا لنزول آية !! وتوسع في إيراد المرويات التي لا يعول على مثلها في حكاية سبب النزول ، وسيتم تطبيق هذه الدراسة على تفسير مفسر شهد بإمامته كثيرون في التفسير والحديث ومختلف فنون العلوم الشرعية ، ألا وهو كتاب تفسير البغوي – رحمه الله .

الكلمات الدالة: الإمام البغوي – أسباب النزول .

Research abstract

This research seeks to uncover the extent to which the commentators rely on the causes of revelation in understanding the Qur'an text. Knowing the reasons for revelation is of great importance in understanding and interpreting the text, and for this reason the commentators were keen to rely on the causes of revelation as one of the principles of interpretation, and their methods differed in the application of this principle in interpretation Some of them adhered - upon application - to the principles and theoretical principles that the majority of scholars of the Qur'an had written to control the dealing with the causes of revelation when interpreting the Qur'an text. He is not aware of the meaning of the verse on the reason for its revelation only, but goes beyond this reason, so he makes the lesson in the general sense of the meaning of the Qur'anic expression, not about the reason for its revelation, and we saw those who dealt with the causes of revelation without taking into account these restrictions and drowned in exaggeration to the point that he may have considered a story before Islam as a reason for the revelation of a verse! ! And he expanded on the narrations that are unreliable in the tale of the cause of revelation, and this study will be applied to an interpreter whose imam has witnessed many witnesses in exegesis, hadith, and the various arts of Sharia sciences, namely the book of Tafsir al-Baghawi - may Allah have mercy on him.

Key words: Imam Al-Baghawi - Reasons for revelation.

المقدمة :

فإن لمعرفة أسباب النزول أهمية كبرى في فهم النص القرآني وتفسيره ، ولهذا حرص المفسرون على الاعتماد على أسباب النزول كأصل من أصول التفسير ، واختلفت مناهجهم في تطبيق هذا الأصل في التفسير ، وعرف هذا من خلال التتبع والاستقراء أو من خلال نص بعضهم عليه في مقدمة تفسيره ، فألفينا بعضهم التزم – عند التطبيق – بما تحرر لدى الجمهرة من علماء علوم القرآن من قواعد وأصول نظرية تضبط التعاطي مع أسباب النزول عند تفسير النص القرآني ، فلم يعتمد من أسباب النزول إلا ما صح نقله ، وما كان مزامنا من الأحداث لنزول القرآن لا قبله ولا بعده ، غير واقف بدلالة الآية على سبب نزولها فقط ، بل يتجاوز هذا السبب ، فيجعل العبرة بعموم دلالة اللفظ القرآني لا بخصوص سبب نزوله ، ورأينا من تعامل مع أسباب النزول دون مراعاة لهذة الضوابط فأغرق في الشطط لدرجة أنه ربما اعتبر قصة قبل الإسلام سببا لنزول آية !! وتوسع في إيراد المرويات التي لا يعول على مثلها في حكاية سبب النزول .

وقد أرادت الباحثة أن تقف على مدى التزام كبار المفسرين القدامى بهذه الضوابط في التعامل مع أسباب عند تفسير النص القرآني ، فاختارت كتابا لمفسرا شهد بإمامته كثيرون في التفسير والحديث ومختلف فنون العلوم الشرعية ، ألا وهو كتاب تفسير البغوي – رحمه الله .

أسباب اختيار الموضوع:

وقد دفعني لاختيار هذا الموضوع عدة أسباب كان من أهمها:

١- إمامة البغوي في التفسير وتطبيقه لمناهج علوم القرآن في تفسيره .

٢-الوقوف على أثر واحد من أهم علوم القرآن – وهو أسباب النزول- في فهم النص القرآني.

٣- عدم وجود بحث سابق يتناول منهج البغوي في الاعتماد على أسباب النزول في تفسيره للنص القرآني.

الدراسات السابقة :

١ – الإمام البغوي و كتابه التفسير: محمد علي محمود عثمان، رسالة دكتوراه أجيزت بجامعة الأزهر سنة ١٤٠٠هـ .

٢ – البغوي الفراء وتفسيره للقرآن الكريم : د. محمد إبراهيم شريف، رسالة ماجستير، أجيزت بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة، سنة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

٣ – البغوي وابن كثير ومنهجهما في التفسير: دراسة وتحقيق: زينب عبد الرحمن الدخيل، رسالة دكتوراه ، أجيزت بكلية التربية للبنات بالرياض.

٤ – منهج الإمام البغوي في عرض القراءات وأثر ذلك في تفسيره: دراسة نظرية تطبيقية، طلحة محمد توفيق ملا حسين، جامعة أم القرى.

٥– البغوي ومنهجه في التفسير: عفاف عبدالغفور حميد ،رسالة ماجستير بجامعة بغداد ، ثم نشر في الطبعة الأولى بمطبعة الإرشاد ببغداد ، سنة ١٩٩٣م .

منهج البحث :

طبيعة هذا البحث تقتضي استخدام أكثر من منهج من مناهج البحث العلمي ، فالمنهج الاستقرائي: لتتبع ظاهرة أسباب النزول عند البغوي في تفسيره ، والمنهج الاستنباطي : لاستنباط منهجه في اعتماده على أسباب النزول في التفسير ، والمنهج المقارن : للمقارنة بين منهج البغوي وغيره من علماء علوم القرآن .

خطة البحث:

وقد قسمت هذا البحث إلى مقدمة، وستة مباحث ، وخاتمة.

أما المقدمة: فقد بينت فيها فكرة الموضوع ، وأسباب اختياره ، ومنهج البحث ، والدراسات السابقة ، وخطة البحث .

المبحث الأول : ترجمة موجزه البغوي .

المبحث الثاني : تعريف أسباب النزول وموقف البغوي منها.

المبحث الثالث: طرق أسباب النزول وموقف البغوي منها.

المبحث الرابع : صيغ أسباب النزول وموقف البغوي منها.

المبحث الخامس : أهمية أسباب النزول ومدى اعتماد البغوي عليها في تفسيره.

المبحث السادس : قاعدة عموم اللفظ وخصوص السبب وموقف البغوي منها.

ترجمة موجزه البغوي .

نسبه ونسبته :

هو الإمام الحافظ المفسر الفقيه المجتهد محي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد الفراء البغوي الشافعي ويلقب بركن الدين ، كان من أبرز العلماء الذين خدموا الكتاب العزيز، والسنة النبوية، دراسة وتدريسا، وتأليفا.[١]

وله نسبتان : الفراء: نسبة إلى عمل الفراء وبيعها ، والبغوي: بفتح الباء الموحدة، والغين المعجمة وبعدها واو، هذه النسبة إلى بلدة بخراسان بين مرو وهراة يقال لها "بغ" و"بغشور" بفتح الباء الموحدة، وسكون الغين المعجمة، وضم الشين، وبعدها واو ساكنة، ثم راء، وهذه النسبة شاذة على خلاف الأصل، هكذا قال السمعاني في كتاب "الأنساب".[٢]

قال الذهبي : (لا نعرف الكثير عن نشأته وحياته المبكرة، كما نجهل ما يتصل بأسرته وعدد أفرادها وذلك كله لأن المصادر التي ترجمت له لا تفصح عن ذلك، ولعل السبب في هذه الظاهرة أن أسرة الإمام البغوي لم يكن فيها من له باع طويل في ميدان العلم والفقه والكتاب والسنة، فيذكرون بتلك العلوم كما ذكر، ويشهرون بها كما شهر، علما بأن المدينة التي ولد بها ونشأ فيها وهي بلاد خراسان التي أنجبت كثيرا من العلماء).[٣]

وقد كان يميل في نفسه إلى الزهد والقناعة والتقشف ، حتى إنه كان لا يأكل إلا الخبز وحده ، فليم على ذلك ، فصار يأكله مع الزيت ، ويذكر ابن خلكان أنه حين ماتت زوجته لم يأخذ من ميراثها شيئا.[٤]

أشياخه :

دفع الإمام البغوي حبه وحرصه على المعرفة ، وشغفه بالسنة ، أن يرحل في طلب العلم ، فرحل إلى مرو الروز ليلتقي بإمام عصره الحسين بن محمد المروزي القاضي ، فتتلمذ له وروى عنه ، وأخذ عنه المذهب الشافعي ، وطاف بلاد خراسان وسمع إلى كثير من علمائها ، ثم رحل إلى (مروالروذ) وكان عمره سبعة وعشرين عاما ، وقد كانت سماعاته بعد الستين وأربعمائة ، فاتخذها وطنا ثانيا له ، ولم يغادرها حتى توفي .[٥]

---

[١]) انظر: سير أعلام النبلاء: للذهبي ٤٣٩/١٩، و طبقات الشافعية للسبكي: ٧٥/٧-٨٠.

[٢]) انظر : الأنساب: عبد الكريم بن محمد السمعاني ، المحقق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وغيره ، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد ، ط١، ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢ م ،٢٧٣/٢ ، وفيات الأعيان: لابن خلكان ١٣٦/٢.

[٣]) سير أعلام النبلاء: للذهبي ٤٣٩/١٩

[٤]) انظر : وفيات الأعيان لابن خلكان ١٣٦/٢

[٥]) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٧٥/٧

وأخذ البغوي العلم عن كثير من العلماء في مختلف في فروع العلم تفسيرا، وحديثا، وفقها ، ومن أبرزهم:

١ – فقيه الشافعية وشيخهم القاضي حسين بن محمد المروزي، فقيه خراسان (ت٤٦٢هـ).

٢– عبد الواحد بن أحمد بن أبي القاسم المليحي الهروي (ت٤٦٣هـ) ، راوي الصحيح عن النعيمي، وكان صالحا، أكثر عنه الرواية .[١]

٣– الفقيه أبو الحسن علي بن يوسف الجويني، المعروف: بشيخ الحجاز(ت٤٦٣هـ) ، صاحب كتاب "السلوة في علوم الصوفية" وكان فقيها فاضلا .

٤– أبو علي حسان بن سعيد المنيعي (ت٤٦٣هـ).

٥– أبو بكر محمد بن عبد الصمد الترابي المروزي، الشيخ الجليل، المعمر، مسند خراسان، تفرد عن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب الرازي، (ت٤٦٣هـ).[٢]

٦– أبو بكر يعقوب بن أحمد الصيرفي النيسابوري الشيخ الرئيس، الثقة المسند توفي سنة (ت٤٦٦هـ).[٣]

٧– أبو صالح أحمد بن عبد الملك بن علي بن أحمد بن عبد الصمد بن بكر النيسابوري الصوفي المؤذن، الإمام، الحافظ، الزاهد، المسند، محدث خراسان، صنف "تاريخ مرو" مات سنة (٤٧٠) هـ.[٤]

٨– أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المظفر بن محمد بن داوود بن أحمد بن معاذ الداوودي البوشنجي، الإمام، العلامة، الورع، القدوة جمال الإسلام، شيخ خراسان علما، وفضلا، وجلالة، وسندا، توفي سنة (٤٦٧) هـ .[٥]

وعدد كبير غير هؤلاء ممن أخذ عنهم البغوي رحمه الله .

تلاميذه:

وقد كتب الله للبغوي قبولا بين طلاب العلم لكثرة علمه، وفضله، وسعة معرفته بعلوم كثيرة، فتتلمذ عليه كثيرون ، منهم:

---

[١]) سير النبلاء ٢٥٥/١٨

[٢]) المصدر السابق: ٢٥١/١٨.

[٣]) تذكرة الحفاظ: ١١٦٠/٣، شذرات الذهب: ٣٢٥/٣

[٤]) تاريخ بغداد: ٢٦٧/٤، سير أعلام النبلاء ٤١٩/١٨

[٥]) سير أعلام النبلاء: ٢٢٢/١٨، شذرات الذهب: ٣٢٧/٣

١- أبو منصور محمد بن أسعد بن محمد حفده العطاري- تصحفت في شذرات الذهب إلى العطاردي والصحيح العطاري -وهو الذي روى كتابي "شرح السنة" ومعالم التنزيل" توفي سنة (٥٧١هـ).

٢ - أبو الفتوح محمد بن أبي جعفر محمد بن علي بن محمد الطائي الهمداني الواعظ المحدث ، صاحب "الأربعين في إرشاد السائرين إلى منازل اليقين " توفي سنة (٥٥٥هـ).

٣- أبو المكارم فضل الله بن أبي سعيد محمد بن أحمد النوقاني الشافعي، وهو آخر من روى عنه بالإجازة، توفي سنة (٦٠٠هـ) .

٤ - الحسن بن مسعود البغوي أبو علي أخو الإمام الحسين البغوي تفقه على أخيه.

٥- عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن الحسين بن محمد الليثي وهو إمام ورع، حافظ لمذهب الشافعي.

٦- مثاور بن فزكوه أبو مقاتل الديلمي اليزدي ، يلقب بعماد الدين، وهو من كبار تلامذته، توفي سنة (٥٤٦هـ).

٧- محمد بن الحسين الزاغولي توفي سنة (٥٥٩ هـ) .

وغيرهم كثيرون ممن تتلمذ عليه وأخذ عنه .[١]

عقيدته:

لقد كان البغوي من الأئمة الذين تقيدوا بالكتاب والسنة، في مفهوم الاعتقاد وبخاصة فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته، ومما يدل على ذلك : تعليقه على الحديث الذي رواه مسلم في القدر: باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء ، قال رحمه الله : (والإصبع المذكورة في الحديث صفة من صفات الله عز وجل، وكذلك كل ما جاء به الكتاب أو السنة من هذا القبيل في صفات الله تعالى، كالنفس، والوجه، والعين، واليد، والرجل، والإتيان، والمجي، والنزول إلى السماء الدنيا، والاستواء على العرش، والضحك والفرح ..) إلى أن قال:(... فهذه ونظائرها صفات الله تعالى، ورد بها السمع يجب الإيمان بها، وامرارها على ظاهرها معرضا فيها عن التأويل، مجتنبا عن التشبيه ، معتقدا أن الباري سبحانه وتعالى لا يشبه شيء من صفاته صفات الخلق، كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق، قال الله سبحانه وتعالى: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} الشورى ، وعلى هذا مضى سلف الأمة، وعلماء السنة، تلقوها جميعا بالإيمان والقبول، وتجنبوا فيها عن التمثيل والتأويل، ووكلوا العلم فيها إلى الله عز وجل،" ثم يذكر أقوال السلف مدللا على ذلك .[٢]

[١]) سير أعلام النبلاء: ٢٢٢/١٨ ، شذرات الذهب: ٣٢٧/٣.
[٢]) انظر شرح السنة للبغوي ١٦٦/١- ١٧١.

ثناء العلماء عليه:

- قال عنه الإمام الذهبي :(الإمام الحافظ الفقيه المجتهد محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود الشافعي ... وبورك له في تصانيفه لقصده الصالح فإنه كان من العلماء الربانيين، كان ذا تعبد ونسك وقناعة باليسير، وكان يأكل كسرة وحدها، فعذلوه، فصار يأكلها بزيت ...).[١]
- وقال عنه تاج الدين السبكي :(كان إماما جليلا ورعا زاهدا فقيها محدثا مفسرا جامعا بين العلم والعمل، سالكا سبيل السلف ... ، له في الفقه اليد الباسطة ...).[٢]
- وقال عنه ابن كثير: (الحسين بن مسعود صاحب التفسير ... اشتغل على القاضي حسين، وبرع في هذه العلوم، وكان علامة زمانه، وكان دينا ورعا زاهدا عابدا صالحا ...).[٣]
- وقال عنه ابن العماد الحنبلي: (المحدث المفسر صاحب التصانيف وعالم خراسان ... وقال ابن الأهدل: ... وهو صاحب الفنون الجامعة، والمصنفات النافعة مع الزهد والورع والقناعة ...).[٤]
- وقال عنه ابن تغري بردي: (الإمام الحافظ المحدث أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي المعروف بابن الفراء، كان إماما حافظا، رحل إلى البلاد، وسمع الكثير، وحدث وألف وصنف، وكان يقال له: محيي السنة).[٥]
- وقال عنه ابن خلكان: (أبو محمد الحسين بن مسعود ... وصنف في تفسير كلام الله تعالى، وأوضح المشكلات من قول النبي صلى الله عليه وسلم، وروى الحديث ودرس، وكان لا يلقي الدرس إلا وهو على طهارة ...).[٦]
- وقال الإمام الخازن: (... الشيخ الجليل والحبر النبيل الإمام العالم محيي السنة، قدوة الأمة، وامام الأئمة، مفتي الفرق، ناصر الحديث، ظهير الدين أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي).[٧]

---

[١]) تذكرة الحفاظ ١٢٥٧/٤

[٢]) طبقات الشافعية ،٧/ ٧٥– ٧٧

[٣]) البداية والنهاية ، ١٢/ ١٩٣

[٤]) شذرات الذهب ، ٤/ ٤٨– ٤٩

[٥]) النجوم الزاهرة ، ٥/ ٢٢٣

[٦]) وفيات الأعيان ، ٢/ ١٣٦

[٧]) مقدمة تفسير الخازن ، ص/٣

– وقال عنه السيوطي:(يلقب بمحيي السنة وركن الدين أيضا، كان إماما في التفسير، إماما في الحديث، إماما في الفقه ... وكان لا يلقي الدرس إلا على طهارة ...).[١]

– وقال ابن شهبة: (وكان دينا، عالما، عاملا على طريقة السلف) .[٢]

توفي رحمه الله بمروالروذ في شوال سنة ست عشر وخمسمائة وهو الذي اختاره الذهبي في التذكرة ، عن بضعة وسبعين سنة .[٣]

تعريف أسباب النزول وموقف البغوي منها.

تنوعت عبارات العلماء في تعريف سبب النزول وحصر ما يدخل فيه والتنبيه على ما ليس منه كالتالي:

قال السيوطي (ت٩١١هـ): (والذي يتحرر في سبب النزول أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه ليخرج ما ذكره الواحدي في تفسيره في سورة الفيل من أن سببها قصة قدوم الحبشة ، فإن ذلك ليس من أسباب النزول في شيء بل هو من باب الإخبار عن الوقائع الماضية ...).[٤]

وقال الزرقاني (ت١٣٦٧هـ): (سبب النزول هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه أو مبينة لحكمه أيام وقوعه ، والمعنى أنه حادثة وقعت في زمن النبي صلى الله عليه وسلم أو سؤال وجه إليه فنزلت الآية أو الآيات من الله تعالى ببيان ما يتصل بتلك الحادثة أو بجواب هذا السؤال).[٥]

ويبدو أن البغوي لما أراد العملية التطبيقية في تفسير النص القرآني لم يشأ أن يثقله بالمقالات النظرية ، فاكتفى بالإشارة إلى ما كتبه العلماء في هذا ، قال في مقدمة تفسيره وهو يبين أهمية علوم القرآن بالنسبة للمفسر :(... ولا حصول لهذه المقاصد إلا بدراية تفسيره وأعلامه، ومعرفة أسباب نزوله وأحكامه والوقوف على ناسخه ومنسوخه، ومعرفة خاصه وعامه، ثم هو كلام معجز وبحر عميق لا نهاية لأسرار علومه، ولا إدراك لحقائق معانيه، وقد ألف أئمة السلف في أنواع علومه كتبا كل على قدر فهمه ومبلغ علمه نظرا للخلق، فشكر الله تعالى سعيهم ورحم كافتهم).[٦]

---

[١]) طبقات المفسرين، ١٢– ١٣

[٢]) في طبقات الشافعية ٣١٠/١

[٣]) انظر : تذكرة الحفاظ ٤/ ١٢٥٨، معجم البلدان:لياقوت الحموي ،١/ ٤٦٨

[٤]) "الإتقان" "١/ ٣١" و"لباب النقول" "ص١٤"

[٥]) مناهل العرفان في علوم القرآن: محمد عبد العظيم الزرقاني ، ت :أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٦هـ /١٩٩٦م ، ١٠٨/١

[٦]) معالم التنزيل في تفسير القرآن : للبغوي ، ٤٥/١

وباستقراء تفسير البغوي تبين أن مفهوم أسباب النزول عنده لم يخرج عما عند الجمهرة من علماء علوم القرآن ، وهو المفهوم المذكور سابقا من كلام السيوطي والزرقاني وغيرهما ، ومما يدل على ذلك على سبيل المثال : أنه ذكر في تفسير سورة الفيل عددا من الروايات التي تشرح تفاصيل ما وقع إبان تلك الحادثة ، لكنه لم يذكر أن شيئا منها كان سببا لنزول الآيات ، وهذا يؤكد على أن البغوي كان لا يرى سبب النزول إلا الأسئلة التي توجه أو الحوادث التي تقع زمن نزول القرآن لا قبله ولا بعده .

وخلاصة كلام العلماء في سبب النزول أنه ينقسم إلى :

= واقعة حدثت زمن نزول القرآن فنزل القرآن متحدثا عنها أو مبينا لبعض أحكامها .

= سؤال أثير فنزل القرآن بجوابه .

والسؤال الذي نزل بشأنه قرآن إما أن يصرح به في الآيات أو لا ، فمن أمثلة ما صرح به ما جاء في صدر سورة الأنفال قال البغوي – رحمه الله :

"{يسألونك عن الأنفال} الآية، قال أهل التفسير: سبب نزول هذه الآية هو أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر: "من أتى مكان كذا فله من النفل كذا ومن قتل قتيلا فله كذا ومن أسر أسيرا فله كذا"، فلما التقوا تسارع إليه الشبان وأقام الشيوخ ووجوه الناس عند الرايات، فلما فتح الله على المسلمين جاءوا يطلبون ما جعل لهم النبي صلى الله عليه وسلم، فقال الأشياخ: كنا ردءا لكم ولو انهزمتم لانحزتم إلينا، فلا تذهبوا بالغنائم دوننا، وقام أبو اليسر بن عمرو الأنصاري أخو بني سلمة فقال: يا رسول الله إنك وعدت أن من قتل قتيلا فله كذا ومن أسر أسيرا فله كذا وانا قد قتلنا منهم سبعين وأسرنا منهم سبعين، فقام سعد بن معاذ رضي الله عنه فقال: والله يا رسول الله ما منعنا أن نطلب ما طلب هؤلاء زهادة في الأجر ولا جبن عن العدو، ولكن كرهنا أن نعري مصافك فيعطف عليه خيل من المشركين فيصيبوك، فأعرض عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال سعيد: يا رسول الله إن الناس كثير والغنيمة دون ذلك، فإن تعط هؤلاء الذين ذكرت لا يبقى لأصحابك كبير شيء، فنزلت: {يسألونك عن الأنفال}"[1] .

[1]) معالم التنزيل للبغوي ٣/٣٢٤.

ومن الأمثلة على أن سبب النزول قد يكون سؤالا – رغم أن الآية لا تصريح فيها ولا إشارة إليه – ما أورده البغوي عند تفسير قوله تعالى: {والهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم} [البقرة: ١٦٣] حيث قال :

سبب نزول هذه الآية أن كفار قريش قالوا يا محمد صف لنا ربك وانسبه فأنزل الله تعالى هذه الآية وسورة الإخلاص[١] .

أما مثال سبب النزول عقب واقعة فهو ما ذكره البغوي عند تفسير قوله تعالى {ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن} [البقرة: ٢٢١] حيث قال :

سبب نزول هذه الآية أن أبا مرثد الغنوي بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ليخرج منها ناسا من المسلمين سرا، فلما قدمها سمعت به امرأة مشركة يقال لها عناق، وكانت خليلته في الجاهلية، فأتته وقالت: يا أبا مرثد ألا تخلو؟ فقال لها ويحك يا عناق إن الإسلام قد حال بيننا وبين ذلك، قالت: فهل لك أن تتزوج بي؟ قال نعم، ولكن أرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأستأمره، فقالت أبي تتبرم؟ ثم استغاثت عليه فضربوه ضربا شديدا، ثم خلوا سبيله، فلما قضى حاجته بمكة وانصرف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه بالذي كان من أمره وأمر عناق وما لقي بسببها وقال: يا رسول الله أيحل لي أن أتزوجها؟ فأنزل الله تعالى {ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن}[٢] .

طرق معرفة أسباب النزول وموقف البغوي منها.

بناء على ما سبق من تحرير مفهوم سبب النزول ، فإن طرق معرفته تنحصر في الرواية الصحيحة ، سواء عن النبي – صلى الله عليه وسلم– أو عن أصحابه الذين شاهدوا نزول القرآن ، يقول الواحدي النيسابوري (ت٤٦٨هـ) : (ولا يحل القول في أسباب نزول الكتاب، إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل، ووقفوا على الأسباب، وبحثوا عن علمها وجدوا في الطلاب، وقد ورد الشرع بالوعيد للجاهل ذي العثار في العلم بالنار... وأما اليوم فكل أحد يخترع شيئا ويختلق إفكا وكذبا ملقيا زمامه إلى الجهالة غير مفكر في الوعيد للجاهل بسبب نزول الآية وذلك الذي حدا بي إلى إملاء هذا الكتاب الجامع للأسباب، لينتهي إليه طالبوا هذا الشأن والمتكلمون في نزول القرآن، فيعرفوا الصدق ويستغنوا عن التمويه والكذب ويجدوا في تحفظه بعد السماع والطلب).[٣]

---

١) معالم التنزيل للبغوي ١/١٧٦.

٢) معالم التنزيل للبغوي ١/٢٥٥ .

٣) أسباب النزول : أبوالحسن علي بن أحمد الواحدي ، تحقيق : أيمن صالح شعبان ، ط١، دار الحديث ، القاهرة ، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م ، ص/ ١٢

ويفهم من كلام الواحدي أنه لا يجوز الاجتهاد في معرفة سبب النزول ، لأنه من القول في القرآن بغير علم ، وقد قال تعالى: (ولا تقف ما ليس لك به علم...).[١]

وقد روى القاسم بن سلام (ت٢٢٤هـ) : (قال محمد بن سيرين سألت عبيدة عن آية من القرآن فقال اتق الله وقل سدادا ذهب الذين يعلمون فيم أنزل القرآن).[٢]

وأكد السيوطي (ت٩١١هـ) –أيضا – على هذا في لباب النقول .[٣]

(وبما أن أسباب النزول غير خاضعة للاجتهاد أدخلها علماء الحديث من الصحابي الذي عاين التنزيل وعاصره فيما له حكم المرفوع، وان كانت العبارة فيها لفظ الصحابي كحديث ابن عباس السابق في جوابه لمروان، فإن اللفظ لابن عباس، لكن له حكم المرفوع أي المنسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد اتفق علماء الحديث على اعتبار قول الصحابي في سبب النزول له حكم المرفوع، وأخرج المحدثون أسباب النزول في كتبهم كالبخاري ومسلم وغيرهما ، أما ما يرويه التابعون من أسباب النزول فهو مرفوع أيضا، لكنه مرسل ، لعدم ذكر الصحابي فيه ، لكن ينبغي الحذر والتيقظ ، فلا نخلط بأسباب النزول ما ليس منها، فقد يقع على لسانهم قولهم: «نزلت هذه الآية في كذا»، أو «في الرجل يفعل كذا». ويكون المراد بيان موضوع الآية، أو ما دلت عليه من الحكم ، كقوله تعالى: (وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) ، أخرج البخاري عن حذيفة في هذه الآية قال: «نزلت في النفقة».[٤]

قال الإمام الزركشي (ت٧٩٤هـ): «وقد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال: نزلت هذه الآية في كذا، فإنه يريد بذلك أن هذه الآية تتضمن هذا الحكم، لا أن هذا كان السبب في نزولها ... فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية، لا من جنس النقل لما وقع».[٥]

---

[١]) سورة الإسراء: من الآية ٣٦.

[٢]) فضائل القرآن : للقاسم بن سلام ، ص/ .. ، و أسباب النزول : للواحدي ، ص/١٢

[٣]) (ص/١٠٨)

[٤]) علوم القرآن الكريم: نور الدين محمد عتر الحلبي ، ط١، مطبعة الصباح – دمشق ، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣ م ، ص/٤٨

[٥]) البرهان في علوم القرآن ١/٣١–٣٢ باختصار.

ويقول الطاهر ابن عاشور (ت١٣٩٤هـ) في المقدمة الخامسة لتفسيره حول (أسباب النزول): " أولع كثير من المفسرين بتطلب أسباب نزول آي القرآن، وهي حوادث يروى أن آيات القرآن نزلت لأجلها؛ لبيان حكمها، أو لحكايتها، أو إنكارها، أو غير ذلك، وأغربوا في ذلك وأكثروا، حتى كاد بعضهم أن يوهم الناس أن كل آية من القرآن نزلت على سبب ، وحتى رفعوا الثقة بما ذكروا ؛ بيد أنا نجد في بعض آي القرآن إشارة إلى الأسباب التي دعت إلى نزولها، ونجد لبعض الآي أسبابا ثبتت بالنقل دون احتمال أن يكون ذلك رأي الناقل، فكان أمر أسباب النزول دائرا بين القصد والإسراف، وكان في غض النظر عنه، وارسال حبله على غاربه خطر عظيم في فهم القرآن... ولكني لا أعذر أساطين المفسرين الذين تلقفوا الروايات الضعيفة فأثبتوها في كتبهم، ولم ينبهوا على مراتبها قوة وضعفا، حتى أوهموا كثيرا من الناس أن القرآن لا تنزل آياته إلا لأجل حوادث تدعو إليها، وبئس هذا الوهم؛ فإن القرآن جاء هاديا إلى ما به صلاح الأمة في أصناف الصلاح، فلا يتوقف نزوله على حدوث الحوادث الداعية إلى تشريع الأحكام ، نعم إن العلماء توجسوا منها، فقالوا: إن سبب النزول لا يخصص ، إلا طائفة شاذة ادعت التخصيص بها، ولو أن أسباب النزول كانت كلها متعلقة بآيات عامة، لما دخل من ذلك ضر على عمومها؛ إذ قد أراحنا أئمة الأصول حين قالوا: "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب"، ولكن أسبابا كثيرة رام رواتها تعيين مراد؛ من تخصيص عام، أو تقييد مطلق، أو إلجاء إلى محمل، فتلك التي قد تقف عرضة أمام معاني التفسير قبل التنبيه على ضعفها أو تأويلها، وقد قال الواحدي في أول كتابه في "أسباب النزول": "أما اليوم، فكل أحد يخترع للآية سببا، ويختلق إفكا وكذبا، ملقيا زمامه إلى الجهالة، غير مفكر في الوعيد"، وقال: "لا يحل القول في أسباب نزول الكتاب، إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل). [١]

ومن خلال تتبع منهج البغوي في طريق معرفة أسباب النزول فإنه قد تبين أنه :

يعتمد قول الصحابي في أسباب النزول :

ومن أمثلة ذلك :(قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن حبرا من أحبار اليهود، يقال له عبد الله بن صوريا قال للنبي –صلى الله عليه وسلم–: أي ملك يأتيك من السماء؟ قال:

[١]) التحرير والتنوير" ١/٤٦، ٤٧ باختصار، و"أسباب النزول" ص/ ١٢.

«جبريل» ، قال: ذلك عدونا من الملائكة، ولو كان ميكائيل لآمنا بك، إن جبريل ينزل بالعذاب والقتال والشدة وانه عادانا مرارا، كان أشد ذلك علينا أن الله تعالى أنزل على نبينا: أن بيت المقدس سيخرب على يد رجل يقال له: بختنصر، وأخبرنا بالحين الذي يخرب فيه، فلما كان وقته بعثنا رجلا من أقوياء بني إسرائيل في طلبه ليقتله، فانطلق حتى لقيه ببابل غلاما مسكينا فأخذه ليقتله، فدفع عنه جبريل، وكبر بختنصر وقوي وغزانا وخرب بيت المقدس، فلهذا نتخذه عدوا، فأنزل الله هذه الآية).[1]

قال ابن تيمية رحمه الله :(وقد تنازع العلماء في قول الصاحب – أى الصحابى– : نزلت هذه الآية في كذا، هل يجري مجرى المسند كما يذكر السبب الذي أنزلت لأجله، أو يجري مجرى التفسير منه الذي ليس بمسند؟ فالبخاري يدخله في المسند وغيره لا يدخله في المسند ، وأكثر المسانيد على هذا الاصطلاح كمسند أحمد وغيره، بخلاف ما إذا ذكر سببا نزلت عقبه ، فإنهم كلهم يدخلون مثل هذا في المسند ، واذا عرف هذا، فقول أحدهم: نزلت في كذا، لا ينافي قول الآخر: نزلت في كذا، إذا كان اللفظ يتناولهما، كما ذكرناه في التفسير بالمثال، واذا ذكر أحدهم لها سببا نزلت لأجله وذكر الآخر سببا، فقد يمكن صدقهما بأن تكون نزلت عقب تلك الأسباب، أو تكون نزلت مرتين، مرة لهذا السبب ومرة لهذا السبب).[2]

وتبين كذلك أنه يعتمد قول التابعي في أسباب النزول :

ومن ذلك صنيعه عند قول الله تعالى :(يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله إن الله سريع الحساب).[3]

---

[1]) تفسير البغوي ١٢٥/١ ، وقال محققه : (لم أجده مسندا بهذا التمام ، ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (٤١) عن ابن عباس بدون إسناد، وقال الحافظ في «تخريج الكشاف» (١/ ١٦٩) بعد أن زاد نسبته للثعلبي: ولم أقف له على سند، ولعله من تفسير الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس اهـ ، وهذه إشارة إلى وهن الخبر فإن الكلبي متهم كما تقدم. ولبعضه شاهد عن شهر بن حوشب عن ابن عباس، أخرجه الطبري ١٦٠٨ واسناده لين، وكرره ١٦٠٩ عن شهر بن حوشب مرسلا، وهو أرجح من الموصول) .

[2]) مقدمة في أصول التفسير: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية ،دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٨٠م ، ص/١٥

[3]) سورة المائدة ، الآية / ٤

(قال سعيد بن جبير: نزلت هذه الآية في عدي بن حاتم وزيد بن المهلهل الطائيين وهو زيد الخيل الذي سماه رسول الله –صلى الله عليه وسلم– زيد الخير، قالا: يا رسول الله إنا قوم نصيد بالكلاب والبزاة فماذا يحل لنا منها؟ فنزلت هذه الآية).[1]

مثال آخر على اعتماد البغوي قول التابعي في أسباب النزول عند تفسيره لقول الله تعالى : (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم)[2] ، قال : (اختلفوا في سبب نزول هذه الآية ، فقال قوم: سبب نزولها ما أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو اليمان أنبأنا شعيب عن الزهري حدثني سعيد بن المسيب عن أبيه، قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة فقال: «أي عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله» ، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة: أترغب عن ملة عبد المطلب، فلم يزل رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يعرضها عليه ويعودان بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول لا إله إلا الله، فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: «والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» ، فأنزل الله تعالى: (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ، وأنزل الله في أبي طالب : (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) [القصص: ٥٦].[3]

وأورد بعد هذه الرواية ست روايات أخرى – ما بين مرسل ومتصل – في أسباب نزول هذه الآية .

ويلاحظ أن البغوي – رحمه الله – رغم اعتماده على المرويات في معرفة سبب النزول إلا أنه يتساهل في النقل بلا تحقيق ، فكثيرا ما ينقل المرويات بلا إسناد ولعله اكتفى بذكر سنده إجمالا إلى من أخذ عنهم، قال البغوي – رحمه الله :(وما نقلت فيه من التفسير عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما حبر هذه الأمة، ومن بعده من التابعين، وأئمة السلف مثل: مجاهد وعكرمة وعطاء بن أبي رباح والحسن البصري وقتادة وأبي العالية ومحمد بن كعب القرظي، وزيد بن أسلم والكلبي والضحاك، ومقاتل بن حيان ومقاتل بن سليمان والسدي وغيرهم، فأكثرها مما أخبرنيه

---

[1]) تفسير البغوي(١٥/٣) ، وقال محققه : (ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٣٨٤ عن سعيد بن جبير بدون إسناد. فالخبر واه ليس بشيء ، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٠) لابن أبي حاتم).

[2]) سورة التوبة ، الآية /١١٣

[3]) تفسير البغوي (١٠٠/٤)

الشيخ أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي الخوارزمي فيما قرأته عليه، عن الأستاذ أبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي عن شيوخه –رحمهم الله ، أما تفسير عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما– ... قال أبو إسحاق: أخبرنا أبو محمد عبد الله بن حامد، أنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبدوس الطرائفي ، ثنا عثمان بن سعيد الدارمي، ثنا عبد الله بن صالح، أن معاوية بن صالح، حدثه عن علي بن أبي طلحة الوالبي عن عبد الله بن عباس ...).[1]

وكثيرا ما يتوسع في اعتماد أقوال التابعين في أسباب النزول كمجاهد بن جبر وعكرمة وسعيد بن جبير والسدي وقتادة ....وغيرهم دون الإشارة إلى رفعهم لمروياته أو إرسالها ، وهذا يجعلنا أمام قدر كبير من المرويات التي لا يعول عليها كسبب للنزول في تفسير البغوي ، وهذا الموقف مستغرب من البغوي المحدث – رحمه الله– إذ من المفترض أن الرجل من أهل صنعة الحديث وله به دراية .

غير أن أقوال العلماء في توثيق البغوي ومانة تفسيره تدعو للاطمئنان ؛

قال الإمام علي بن محمد الخازن المتوفى سنة (٧٢٥ هـ) في مقدمة تفسيره عن تفسير البغوي : «من أجل المصنفات في علم التفسير وأعلاها وأنبلها وأسناها جامعا للصحيح من الأقاويل، عاريا عن الشبه والتصحيف والتبديل، محلى بالأحاديث النبوية، مطرزا بالأحكام الشرعية، موشى بالقصص الغريبة وأخبار الماضين العجيبة، مرصعا بأحسن الإشارات، مخرجا بأوضح العبارات، مفرغا في قالب الجمال في أصح مقال، فرحم الله تعالى مصنفه وأجزل ثوابه وجعل الجنة منقلبه ومآبه» ا. هـ.[2]

وقال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية(ت ٧٢٨هـ): (والبغوي تفسيره مختصر من الثعلبي، لكنه صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعة، والآراء المبتدعة).[3]

– وقال –أيضا – وقد سئل عن أي التفاسير أقرب إلى الكتاب والسنة: الزمخشري، أم القرطبي، أم البغوي؟ أم غير هؤلاء: (أما التفاسير الثلاثة المسئول عنها فأسلمها من البدعة والأحاديث الضعيفة البغوي، لكنه مختصر من تفسير الثعلبي، وحذف منه الأحاديث الموضوعة والبدع التي فيه، وحذف أشياء غير ذلك).[4]

---

[1]) تفسير البغوي (٣٤/١)

[2]) تفسير الخازن ٣/١

[3]) مقدمة في أصول التفسير، ص/ ١٩

[4]) الفتاوى ٢/ ١٩٣

وجدير بالذكر أن ننقل هنا كلام محقق تفسير البغوي (عبد الرزاق المهدي) فيما يتعلق بالرويات التي يذكرها البغوي رحمه الله حيث قال:

"عامة ما يرويه صحيح أو حسن ، وربما روى الضعيف فمن ذلك: الحديث برقم: ١٧ و٤٣ و٥٨ و٨٠ و١٠٦ و١٢٠ و١٥٧ و٢٣٣ و٤١٤ و٤٤٦ و٤٥٠ و٦٥٣ و١١١٩ ، وربما روى الضعيف لكن أشار إلى ذلك حيث ذكره بصيغة التمريض فمن ذلك الحديث ٣٨ و٤٣٩ و٩١٧ ...، وربما روى الضعيف جدا: فمن ذلك الحديث برقم: ٣٠٨ و٤٣٩ و٤٤٦ و٤٨٨ و٥٩٣ و٦٢٨ و١١٣١ و١١٤٤،،،- وربما روى الموضوع أو الباطل وهذا نادر جدا في هذا التفسير: فمن ذلك الحديث برقم: ٥٨٠ و٧٢٦ و٨١٢ و٨٥٧ و١٠٩٤ و٨٩١ ، وأكثر ما يقع هذا النوع في أسباب النزول.

- وربما روى حديثا مرفوعا لكن الراجح وقفه: فمن ذلك الحديث برقم: ٦ و٨ و٤١٤ و٤١٥ و٤٤٧ و٨٣١ و١١١٩ و١١٤٤.
- وربما روى حديثا ضعيف الإسناد لكن له شواهد: فمن ذلك الحديث: ٢٠ و١٠٤ و١١١ و٢٥٩ و٦٥٢ و٨٦٥ و٩٥٠ و٩٩٤ .
- وربما روى حديثا بعضه صحيح، وبعضه ضعيف أو منكر: فمن ذلك الحديث برقم: ٤١ و٤٥ و٦٢٩ و١٠٢٢ و١١٨٢.
- وربما روى خبرا وهو منتزع من حديثين، فمن ذلك الحديث ٨٧١.
- تنبيه: وما ذكرته من أمثلة على الأحاديث الواهية الواردة في هذا التفسير لا يعني الطعن بهذا الكتاب أو مؤلفه، بل هو حقا أقل التفاسير ذكرا للأحاديث الواهية والمنكرة.
- بل عامة ما ساقه من هذه الأحاديث قد أشار إلى ضعفه فإما جرده عن الإسناد، أو ذكره بصيغة التمريض.

أو ساق ما ورد مرفوعا على أنه موقوف ونحو ذلك.

وقد قال رحمه الله في مقدمته: "وما ذكرته من أحاديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في أثناء الكتاب على وفاق آية أو بيان حكم، فإن الكتاب يطلب بيانه من السنة، وعليها مدار الشرع وأمور الدين، فهي من الكتب المسموعة للحفاظ وأئمة الحديث" .

وقد ساق المصنف عامة الآثار الموقوفة والمقطوعة في أثناء الكتاب بدون إسناد، واكتفى بأنه ساق إسناده إلى هؤلاء الأئمة في أول الكتاب، قصد بذلك الاختصار، ومما يؤخذ على المصنف –رحمه الله– نقله عن الكلبي ومقاتل وجويبر وغيرهم ممن هو متروك أو متهم بالكذب، لكن الظاهر أنه تابع غيره ، فعامة المفسرين ينقلون عن هؤلاء وغيرهم ، وأكثر ما نقل عن هؤلاء هو في باب أسباب النزول".[١]

أهمية أسباب النزول في تفسير النص القرآني ومدى اعتماد البغوي عليها في تفسيره

أولا : أهمية أسباب النزول في تفسير النص القرآني :

إن لأسباب النزول أهمية بالغة في تفسير النص القرآني ، بل في كثير من الأحيان يتوقف الفهم على معرفة سبب النزول ، وقد نص كثير من الأئمة على أهمية أسباب النزول في تفسير الآية، فمن ذلك :

قال الواحدي(ت٤٦٨هـ) رحمه الله :(لا يمكن معرفة تفسير الآية، دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها).[٢]

وقال ابن دقيق العيد(ت٧٠٢هـ) رحمه الله : (بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن) [٣].

وكذلك أكد ابن تيمية(ت ٧٢٨هـ) رحمه الله بقوله : (معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب) [٤]

وأراد الزركشي (ت٧٩٤هـ) أن يزيد في التأكيد على أهمية أسباب النزول في التفسير فجلعه أول ما بدأ به من أنواع علوم القرآن فقال :(النوع الأول:معرفة أسباب النزول ، وقد اعتنى بذلك المفسرون في كتبهم وأفردوا فيه تصانيف منهم علي بن المديني شيخ البخاري ومن أشهرها

---

[١]) من كلام المحقق : عبدالرزاق المهدي ، على تفسير البغوي ، دار إحياء التراث العربي –بيروت ، الطبعة : الأولى ، ١٤٢٠ هـ

[٢]) أسباب النزول : للواحدي ، ص/ ٢.

[٣]) الإتقان في علوم القرآن ١/ ٨٨.

[٤]) مقدمة في أصول التفسير ص/ ٥١.

تصنيف الواحدي في ذلك وأخطأ من زعم أنه لا طائل تحته لجريانه مجرى التاريخ وليس كذلك بل له فوائد منها وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم ، ومنها تخصيص الحكم به عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب ، ومنها الوقوف على المعنى .... ومن الفوائد أيضا دفع توهم الحصر قال الشافعي ما معناه في معنى قوله تعالى {قل لا أجد في ما أوحي إلي محرما} الآية إن الكفار لما حرموا ما أحل الله وأحلوا ما حرم الله وكانوا على المضادة والمحادة جاءت الآية مناقضة لغرضهم فكأنه قال لا حلال إلا ما حرمتموه ولا حرام إلا ما أحللتموه نازلا منزلة من يقول لا تأكل اليوم حلاوة فتقول لا آكل اليوم إلا الحلاوة والغرض المضادة لا النفي والإثبات على الحقيقة فكأنه قال لا حرام إلا ما حللتموه من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ولم يقصد حل ما وراءه إذا القصد إثبات التحريم لا إثبات الحل).[1]

فمعرفة سبب النزول تفيد المفسر في بيان الحكمة التي دعت إلى تشريع حكم من الأحكام ؛ وادراك مراعاة الشرع للمصالح العامة في علاج الحوادث، كما أنها تفيد في دفع الإشكال عن الآيات ، فمثلا : عند ما يقرأ القارئ (إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما) [البقرة: ١٥٨]، فقد يفهم منها أنها تسقط فرضية السعي بين الصفا والمروة، كما فهم ذلك عروة بن الزبير، فلما سأل خالته عائشة – رضي الله عنها – قالت له: لو كان الأمر كما فهمت لقيل: لا جناح عليه ألا يطوف بهما، ثم بينت له سبب النزول، وأنها نزلت في الأنصار، حيث أنهم كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية، فلما أسلموا تحرجوا من السعي خشية أن يكون مشابها لفعلهم في الجاهلية، فسألوا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فنزلت الآية، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما .[2]

وفائدة سبب النزول في دفع الإشكال عن فهم الآيات باب واسع ولهذا نذكر له مثالا ثانيا :

وهو ما ورد في سبب نزول قوله تعالى في سورة هود { فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل (١٢) }

---

[1]) البرهان في علوم القرآن: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي ، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركاه ، مصر، ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧ م،

[2]) مناهل العرفان ١/ ٩٩، وأصله عند البخاري ومسلم.

قال ابن عطية – رحمه الله – :

" سبب هذه الآيات أن كفار قريش قالوا: يا محمد لو تركت سب آلهتنا وتسفيه آبائنا لجالسناك واتبعناك. وقالوا: ائت بقرآن غير هذا أو بدله، ونحو هذا من الأقوال"[١] .

ثم دفع ابن عطية الإشكال عن الآية قائلا : "خاطب الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم على هذه الصورة من المخاطبة، ووقفه بها توقيفا رادا على أقوالهم ومبطلا لها، وليس المعنى أنه صلى الله عليه وسلم هم بشيء من ذلك فزجر عنه، فإنه لم يرد قط ترك شيء مما أوحي إليه، ولا ضاق صدره، وانما كان يضيق صدره بأقوالهم وأفعالهم وبعدهم عن الإيمان"[٢] .

فلو لم يعرف المفسر أسباب النزول سوف تختلط عليه مثل هذه الآيات، فلا بد إذن من استجماع هذا الأصل قبل التفسير.

ومما سبق يتبين أن لمعرفة سبب النزول فوائد أهمها :

= وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم .

= تخصيص الحكم به عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب .

= الوقوف على المعنى .

= دفع توهم الحصر.

= دفع الإشكال عن الآيات.

ثانيا : مدى اعتماد البغوي أسباب النزول في تفسيره:

من خلال تتبع واستقراء تفسير البغوي – رحمه الله – تبين تأكيده على أهمية أسباب النزول في تفسير النص القرآني ، لكنه لم يذكر ذلك نظريا ، وانما مارسه عمليا في تفسيره واعتمده كأصل من أصول التفسير عنده .

فمن الأمثلة على توظيفه لسبب النزول في فهم معنى الآية وتوضيحه ما أورده عند تفسير قوله تعالى {إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها} [البقرة: ٢٦] حيث قال :

---

[١]) المحرر الوجيز لابن عطية ١٥٤/٣ .

[٢]) المصدر السابق .

"سبب نزول هذه الآية أن الله تعالى لما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت فقال: {إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له} [الحج: ٧٣] وقال: {مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا} [العنكبوت: ٤١] قالت اليهود: ما أراد الله بذكر هذه الأشياء الخسيسة ؟ وقيل: قال المشركون: إنا لا نعبد إلها يذكر مثل هذه الأشياء فأنزل الله تعالى {إن الله لا يستحيي} أي لا يترك ولا يمنعه الحياء {أن يضرب مثلا} يذكر شبها، {ما بعوضة} ما: صلة، أي مثلا بالبعوضة"[١] .

ومما أورده البغوي من أسباب النزول المبينة للحكمة التي دعت لتشريع الحكم ما ذكره في تفسير الآية الرابعة من سورة المائدة حيث قال :

"قوله عز وجل: {يسألونك ماذا أحل لهم} الآية، قال سعيد بن جبير: نزلت هذه الآية في عدي بن حاتم وزيد بن المهلهل الطائيين وهو زيد الخيل الذي سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد الخير، قالا يا رسول الله إنا قوم نصيد بالكلاب والبزاة فماذا يحل لنا منها؟ فنزلت هذه الآية .

وقيل: سبب نزولها أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أمر بقتل الكلاب قالوا: يا رسول الله ماذا يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها؟ فنزلت هذه الآية فلما نزلت أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في اقتناء الكلاب التي ينتفع بها، ونهى عن إمساك ما لا نفع فيه منها"[٢] .

ومما أورده البغوي من أسباب النزول التي تدفع الإشكال في فهم الآية ما ذكره عند تفسير قوله عز وجل: {ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا} [المائدة : ٩٣] حيث قال :

"سبب نزول هذه الآية أن الصحابة رضوان الله عليهم قالوا لما نزل تحريم الخمر: يا رسول الله كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ويأكلون من مال الميسر؟ فأنزل الله تعالى: {ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا} وشربوا من الخمر وأكلوا من مال الميسر، {إذا ما اتقوا} الشرك، {وآمنوا} وصدقوا، {وعملوا الصالحات ثم اتقوا} الخمر والميسر بعد تحريمهما، {وآمنوا ثم اتقوا} ما حرم الله عليهم أكله وشربه، {وأحسنوا والله يحب المحسنين}"[٣] .

فسبب النزول هنا رفع الإشكال في فهم الآية الكريمة حيث يظن أنها تحل للمسلمين أن يطعموا ما أرادوا وليس الأمر كذلك.

---

[١]) معالم التنزيل للبغوي ٧٦/١ .
[٢]) معالم التنزيل للبغوي ١٥/٣ .
[٣]) معالم التنزيل للبغوي ٩٦/٣ .

وعلى طريقة أهل الإحصاء استعمل البغوي عبارة :(نزلت في ..) ، نحو (٣١٤) مرة ، وعبارة :(وسبب نزولها..) عدة مرات ، وعبارة :(وسبب نزول هذه الآية) نحو (١٢) مرة ، وهذا يشير بوضوح إلى مدى تعويل البغوي على أسباب النزول في تفسيره ، بل إنه يجعله الخطوة الأولى في فهم الآية ، وهاك بعض الأمثلة التطبيقية على ذلك :

المثال الأول : في قوله تعالى : ({الذين آتيناهم الكتاب} قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في أهل السفينة الذين قدموا مع جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وكانوا أربعين رجلا اثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية من رهبان الشام منهم بحيرا .[١]

المثال الثاني : في قوله تعالى:({يسألونك عن الأهلة} نزلت في معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم الأنصاريين قالا: يا رسول الله ما بال الهلال يبدو دقيقا ثم يزيد حتى يمتلئ نورا ثم يعود دقيقا كما بدأ ولا يكون على حالة واحدة ؟ فأنزل الله تعالى: {يسألونك عن الأهلة}.[٢]

المثال الثالث : قوله تعالى :({قل يا أيها الكافرون} إلى آخر السورة ، نزلت في رهط من قريش منهم: الحارث بن قيس السهمي، والعاص بن وائل، والوليد بن المغيرة، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب بن أسد، وأمية بن خلف، قالوا: يا محمد هلم فاتبع ديننا ونتبع دينك ونشركك في أمرنا كله، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، فإن كان الذي جئت به خيرا كنا قد شركناك فيه وأخذنا حظنا منه، وان كان الذي بأيدينا خيرا كنت قد شركتنا في أمرنا وأخذت بحظك منه، فقال: معاذ الله أن أشرك به غيره، قالوا: فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلهك، فقال: حتى أنظر ما يأتي من عند ربي، فأنزل الله عز وجل: "قل يا أيها الكافرون" إلى آخر السورة، فغدا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الحرام وفيه الملاء من قريش، فقام على رءوسهم ثم قرأها عليهم حتى فرغ من السورة، فأيسوا منه عند ذلك وآذوه وأصحابه).[٣]

---

[١]) معالم التنزيل للبغوي ١٤٤/١، ورواه الواحدي في أسباب النزول ، ص /٣٧

[٢]) تفسير البغوي ٢١١/١ ، ورواه ابن عساكر بسند ضعيف عن ابن عباس انظر الدر المنثور للسيوطي ١ / ٤٩٠.

[٣]) تفسير البغوي ٥٦١/٨ ، ورواه ابن إسحاق، سيرة ابن هشام: ١ / ٣٦٢. وانظر الطبري: ٣٠ / ٣٣١، والواحدي في أسباب النزول ، ص/ ٥٤٣، وقال الحافظ في الفتح: ٨ / ٣٣٣ :(وقد أخرج ابن أبي حاتم من حديث ابن عباس قال: قالت قريش للنبي صلى الله عليه وسلم: كف عن آلهتنا فلا تذكرها بسوء، فإن لم تفعل فاعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، فنزلت. وفي إسناده أبو خلف عبد الله بن عيسى، وهو ضعيف).

المثال الرابع : في قوله تعالى :(ومن يتق الله يجعل له مخرجا . ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا)... وأكثر المفسرين قالوا: نزلت في عوف بن مالك الأشجعي، أسر المشركون ابنا له يسمى مالكا فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أسر العدو ابني، وشكا أيضا إليه الفاقة فقال له النبي – صلى الله عليه وسلم: اتق الله واصبر وأكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله، ففعل الرجل ذلك ، فبينما هو في بيته إذ أتاه ابنه وقد غفل عنه العدو، فأصاب إبلا وجاء بها إلى أبيه) .[1] (وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: فتغفل عنه العدو، فاستاق غنمهم، فجاء بها إلى أبيه، وهي أربعة آلاف شاة. فنزلت: "ومن يتق الله يجعل له مخرجا" في ابنه).[2]

وهذه الأمثلة – وغيرها – كافية في بيان مدى اعتماد البغوى على أسباب النزول في فهم النص القرآني وتفسيره .

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه إذا تعددت الروايات واختلفت في سبب النزول فإن البغوي – رحمه الله – يعددها ولا يرجح بينها غالبا ، ومن أمثلة ذكره لاختلاف سبب النزول دون ترجيح ما ذكره عند تفسير البية (١١٣) من سورة التوبة حيث قال :

"{ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين} اختلفوا في سبب نزول هذه الآية.

قال قوم: سبب نزولها: ما أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا أبو اليمان، أنبأنا شعيب، عن الزهري، حدثني سعيد بن المسيب عن أبيه. قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجد عنده أبا جهل، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة: فقال: أي عم قل: لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله. فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعيدان بتلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك، فأنزل الله تعالى: {ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم} وأنزل في أبي طالب: "إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء" ....

---

[1]) تفسير البغوي ١٥١/٨ ، و انظر: الواحدي في أسباب النزول ص: ٥٠٢-٥٠٣.

[2]) تفسير البغوي ١٥١/٨ ، وانظر الطبري: ٢٨ / ١٣٨، عزاه السيوطي في الدر المنثور: ٨ / ١٩٧ لابن مردويه.

وقال أبو هريرة وبريدة: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة أتى قبر أمه آمنة فوقف عليه حتى حميت الشمس رجاء أن يؤذن له فيستغفر لها فنزلت: {ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين} الآية.

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، حدثنا عبد الغافر بن محمد، حدثنا محمد بن عيسى الجلودي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، أنبأنا محمد بن عبيد، عن يزيد بن كيسان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: زار النبي صلى الله عليه وسلم قبر أمه فبكى وأبكى من حوله فقال: "استأذنت ربي عز وجل في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي فزوروا القبور، فإنها تذكر الموت" .

{وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم } [التوبة : ١١٤].

قال قتادة قال النبي صلى الله عليه وسلم: ": "لأستغفرن لأبي. كما استغفر إبراهيم لأبيه" فأنزل الله تعالى هذه الآية: {ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم}"[١] .

فمن الواضح أن البغوي – رحمه الله – ذكر أكر من رواية في سبب النزول ، وقد اختلفت الروايات فيمن نزلت الآيات؟ في أبي طالب؟ أم في أم النبي – صلى الله عليه وسلم؟ أم في أبيه – صلى الله عليه وسلم؟ واكتفى البغوي – رحمه الله – بذكر الروايات دزن ترجيح.

قاعدة عموم اللفظ وخصوص السبب وموقف البغوي منها.

مما ينبغي الوقوف عليه في أسباب النزول القرآني عند الإمام البغوي – رحمه الله – معرفة موقفه من قاعدة عموم اللفظ وخصوص السبب ، وهل كان يراها ؟ أم يرى خلافها ؟

وقد قمت باستقراء موقف البغوي من قاعدة عموم اللفظ وخصوص السبب في تفسيره ، وأعرضها في النقاط التالية :

أولا : المراد عموم اللفظ وخصوص السبب وأقوال العلماء في ذلك :

ومعناه أن يأتي الجواب أعم من السبب ويكون السبب أخص من لفظ الجواب ، وذلك جائز عقلا وواقع فعلا لأنه لا محظور فيه ولا قصور بل إن عمومه مع خصوص سببه موف بالغاية ومؤد للمقصود وزيادة.

[١]) معالم التنزيل للبغوي ٤/١٠٠ و ١٠١ بتصرف .

بيد أن العلماء اختلفوا في حكمه أعموم اللفظ هو المعتبر أم خصوص السبب؟.

ذهب الجمهور إلى أن الحكم يتناول كل أفراد اللفظ سواء منها أفراد السبب وغير أفراد السبب، ومثال ذلك: حادثة قذف هلال بن أمية لزوجته وقد نزل فيها قول الله تعالى: {والذين يرمون أزواجهم} الخ [1]، ويلاحظ أن السبب خاص وهو قذف هلال ، لكن جاءت الآية النازلة فيه بلفظ عام –كما ترى– وهو لفظ {والذين يرمون أزواجهم} ، وهو اسم موصول والموصول من صيغ العموم وقد جاء الحكم بالملاعنة في الآية محمولا عليه من غير تخصيص، فيتناول بعمومه أفراد القاذفين في أزواجهم ولم يجدوا شهداء إلا أنفسهم سواء منهم هلال بن أمية صاحب السبب وغيره ولا نحتاج في سحب هذا الحكم على غير هلال إلى دليل من قياس أو سواه ، بل هو ثابت بعموم هذا النص، ومعلوم أنه لا قياس ولا اجتهاد مع النص، ذلك مذهب الجمهور.[2]

وقال غير الجمهور: إن العبرة بخصوص السبب، ومعنى هذا أن لفظ الآية يكون مقصورا على الحادثة التي نزل هو لأجلها ، أما أشباهها فلا يعلم حكمها من نص الآية ، إنما يعلم بدليل مستأنف آخر هو القياس إذا استوفى شروطه ... فآية القذف السابقة النازلة بسبب حادثة هلال مع زوجه خاصة بهذه الحادثة وحدها على هذا الرأي، أما حكم غيرها مما يشبهها فإنما يعرف قياسا عليها ...وهذا الخلاف القائم بين الجمهور وغيرهم محله إذا لم تقم قرينة على تخصيص لفظ الآية العام بسبب نزوله، أما إذا قامت تلك القرينة فإن الحكم يكون مقصورا على سببه لا محالة بإجماع العلماء.[3]

والنص العام الوارد على سبب يتعدى عند الجمهور وغيرهم ليعم أفراد غير السبب، إلا أن الجمهور يقولون إنه يتناولهم بهذا النص نفسه وغير الجمهور يقولون إنه لا يتناولهم إلا قياسا أو بنص آخر.

يقول ابن تيمية –رحمه الله :(وقد يجيء كثيرا من هذا الباب قولهم: هذه الآية نزلت في كذا، لاسيما إن كان المذكور شخصا؛ كأسباب النزول المذكورة في التفسير، كقولهم: إن آية الظهار نزلت في امرأة اوس بن الصامت، وان آية اللعان نزلت في عويمر العجلاني أو هلال بن أمية، وان آية الكلالة نزلت في جابر بن عبد الله، وان قوله: {وأن احكم بينهم بما أنزل الله} [المائدة: ٤٩] نزلت في بني قريظة والنضير، وأن قوله: {ومن يولهم يومئذ دبره} [الأنفال: ١٦] نزلت في بدر، وأن قوله: {شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت} [المائدة: ١٠٦] نزلت في قضية تميم

[1]) رواه أحمد في المسند ٣٧٤/٤ ، برقم : (٢٤٦٨) ، وقال الأرناؤوط : (إسناده صحيح على شرط البخاري) .

[2]) مناهل العرفان في علوم القرآن: محمد عبد العظيم الزرقاني ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، الطبعة الثالثة ، ١٢٥/١

[3]) المرجع السابق

الداري وعدي بن بداء، وقول أبي أيوب إن قوله: {ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة} [البقرة: ١٩٥] : نزلت فينا معشر الأنصار، الحديث. ونظائر هذا كثير مما يذكرون أنه نزل في قوم من المشركين بمكة، أو في قوم من أهل الكتاب اليهود والنصارى، أو في قوم من المؤمنين ، فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية مختص بأولئك الأعيان دون غيرهم، فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق، والناس وان تنازعوا في اللفظ العام الوارد على سبب هل يختص بسببه أم لا؟ فلم يقل أحد من علماء المسلمين: إن عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين، وانما غاية ما يقال: إنها تختص بنوع ذلك الشخص فيعم ما يشبهه، ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ ، والآية التي لها سبب معين، إن كانت أمرا ونهيا فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته، وان كانت خبرا بمدح أو ذم فهي متناولة لذلك الشخص وغيره ممن كان بمنزلته أيضا).[١]

ولعل ثمرة هذا الخلاف ترجع إلى أمرين: أحدهما أن الحكم على أفراد غير السبب مدلول عليه بالنص النازل فيه عند الجمهور. وذلك النص قطعي المتن اتفاقا وقد يكون مع ذلك قطعي الدلالة. أما غير الجمهور فالحكم عندهم على غير أفراد السبب ليس مدللا عليه بذلك النص بل القياس أو الحديث المعروف وكلاهما غير قطعي ، الثاني : أن أفراد غير السبب كلها يتناولها الحكم عند الجمهور ما دام اللفظ قد تناولها، أما غير الجمهور فلا يسحبون الحكم إلا على ما استوفى شروط القياس منها دون سواه إن أخذوا فيه بالقياس.[٢]

ثانيا : موقف البغوي من قاعدة عموم اللفظ وخصوص السبب:

لم ينص البغوي – رحمه الله –على موقفه من قاعدة عموم اللفظ وخصوص السبب في مقدمة تفسيره ، لكن من خلال التتبع والاستقراء تبين أنه سار على مذهب الجمهور واعتمده في تناوله للآيات القرآنية التي ارتبط نزولها بسبب .

ثالثا:أمثلة تطبيقية لبيان موقف البغوي من قاعدة عموم اللفظ وخصوص السبب:

ومن أمثلة ذلك ما ذكره في تفسير الآية (٣٣) من سورة النور حيث قال:

""قوله تعالى: {والذين يبتغون الكتاب} أي: يطلبون المكاتبة، {مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم} سبب نزول هذه الآية ما روي أن غلاما لحويطب بن عبد العزى سأل مولاه أن يكاتبه فأبى عليه، فأنزل الله هذه الآية فكاتبه حويطب على مائة دينار، ووهب له منها عشرين دينارا فأداها، وقتل يوم حنين في الحرب.

---

[١]) مقدمة في أصول التفسير ص ١٢ – ١٣، وانظر : الإتقانفي علوم القرآن ٣/١.

[٢]) مناهل العرفان في علوم القرآن: محمد عبد العظيم الزرقاني ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، الطبعة الثالثة ، ١٢٥/١

والكتابة أن يقول الرجل لمملوكه: كاتبتك على كذا من المال، ويسمي مالا معلوما، يؤدى ذلك في نجمين أو نجوم معلومة في كل نجم كذا، فإذا أديت فأنت حر، والعبد يقبل ذلك، فإذا أدى المال عتق، ويصير العبد أحق بمكاسبه بعد الكتابة، واذا أعتق بعد أداء المال فما فضل في يده من المال، يكون له، ويتبعه أولاده الذين حصلوا في حال الكتابة في العتق، واذا عجز عن أداء المال كان لمولاه أن يفسخ كتابته ويرده إلى الرق، وما في يده من المال يكون لمولاه، لما أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب، عن مالك عن نافع، أخبرنا عبد الله بن عمر كان يقول: "المكاتب عبد ما بقي عليه من كتابته شيء"[١] . ورواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعا: "المكاتب عبد ما بقي عليه من كتابته درهم"[٢] .

وذهب بعض أهل العلم إلى أن قوله تعالى: {فكاتبوهم} أمر إيجاب، يجب على المولى أن يكاتب عبده الذي علم فيه خيرا إذا سأل العبد ذلك، على قيمته أو أكثر، وان سأل على أقل من قيمته فلا يجب، وهو قول عطاء وعمرو بن دينار، ولما روي أن سيرين سأل أنس بن مالك أن يكاتبه فتلكأ عنه فشكا إلى عمر، فعلاه بالدرة وأمره بالكتابة فكاتبه . وذهب أكثر أهل العلم إلى أنه أمر ندب واستحباب"[٣].

ففي المثال السابق تبين أن سبب نزول آية المكاتبة واقعة معينة ، لكن البغوي – رحمه الله – بعد أن ذكر الرواية في سبب النزول شرع في بيان بعض أحكام المكاتبة بين العبد وسيده وعدد أقوال العلماء في ذلك ، مما يفهم منه أن العبرة عنده عموم اللفظ .

مثال آخر: قوله تعالى({خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم} جدل بالباطل، {مبين} نزلت في أبي بن خلف الجمحي، وكان ينكر البعث جاء بعظم رميم فقال: أتقول إن الله تعالى يحيي هذا بعدما قد رم؟ كما قال جل ذكره "وضرب لنا مثلا ونسي خلقه" (يس–٧٧) ، نزلت فيه أيضا ، والصحيح أن الآية عامة، وفيها بيان القدرة وكشف قبيح ما فعلوه، من جحد نعم الله مع ظهورها عليهم .[٤]

---

[١]) أخرجه مالك في الموطأ موقوفا على ابن عمر، كتاب المكاتب، باب القضاء في المكاتب: ٢ / ٧٨٧.

[٢]) أخرجه أبو داود في العتاق، باب في المكاتب يؤدي بعض كتابته..: ٥ / ٣٨٣

[٣]) معالم التنزيل للبغوي ٤١/٦ .

[٤]) معالم التنزيل في تفسير القرآن : للبغوي (دار طيبة)، ٩/٥

وهذا تصريح من البغوي – رحمه الله – بعموم لفظ الآية رغم خصوص سببها[1] .

ولكن يؤخذ عليه أنه ربما عرض روايات واهية في سبب نزول الآية دون أن يشير إلى ضعفها ، حتى إن محققه تفسيره كثيرا ما يشير إلى هذا بقوله :(هذه أقوال واهية، لا تقوم بها حجة، والصحيح عموم الآية) .[2]

كما جاء في تفسيره لقول الله تعالى (يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم) ، قال البغوي : (ما خدعك وسول لك الباطل حتى أضعت ما وجب عليك، والمعنى: ماذا أمنك من عقابه؟ قال عطاء: نزلت في الوليد بن المغيرة ، وقال الكلبي ومقاتل: نزلت في الأسود بن الشريق ضرب النبي صلى الله عليه وسلم فلم يعاقبه الله عز وجل، فأنزل الله هذه الآية يقول: ما الذي غرك بربك الكريم المتجاوز عنك إذ لم يعاقبك عاجلا بكفرك).[3] قال محقق تفسير البغوي: (هذه أقوال واهية، لا تقوم بها حجة، والصحيح عموم الآية.).

[1]) وهذا ما رجحه الطبري حيث قال: " عنى بالإنسان: جميع الناس، أخرج بلفظ الواحد، وهو في معنى الجميع"، واليه مال ابن عطية في تفسيره. ويدخل سبب النزول المذكور في معنى الآية وتبقى هي أعم. انظر: الطبري: ١٤ / ٧٨، المحرر الوجيز: ٨ / ٣٧٠.

[2]) تفسير البغوي ٥/٢١٩

[3]) المصدر السابق .

الخـاتمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، ثم أما بعد :

فقد أسفرت هذه الدراسة عن عدة نتائج أسجلها فيما يلي:

١-لمعرفة أسباب النزول القرآني أهمية كبرى في فهم النص القرآني وتفسيره ، ولهذا حرص المفسرون على الاعتماد على أسباب النزول كأصل من أصول التفسير.

٢-اختلاف مناهج المفسرين في الاعتماد على أسباب النزول في التفسير، يرجع إلى مدى الالتزام – عند التطبيق – بما تحرر لدى الجمهرة من علماء علوم القرآن من قواعد وأصول نظرية تضبط التعاطي مع أسباب النزول عند تفسير النص القرآني .

٣-أكد البغوي على أهمية أسباب النزول في تفسير النص القرآني ، لكنه لم يذكر ذلك نظريا ، وانما مارسه عمليا في تفسيره واعتمده كأصل من أصول التفسير عنده .

٤-لم ينص البغوي – رحمه الله –على موقفه من قاعدة عموم اللفظ وخصوص السبب في مقدمة تفسيره ، لكن من خلال التتبع والاستقراء تبين أنه سار على مذهب الجمهور واعتمده في تناوله للآيات القرآنية التي ارتبط نزولها بسبب.

٥-ضرورة الربط المنهجي بين المصنفات النظرية في علوم علوم القرآن وبين المصنفات التي مارست علوم القرآن عمليا من خلال عملية تفسير النص القرآني وفهمه .

هذا وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله والحمد لله رب العالمين .

فهرس المصادر والمراجع

١-الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، تحقيق: سعيد المندوه، ط مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، الثانية ، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م.

٢-أسباب النزول : أبوالحسن علي بن أحمد الواحدي ، تحقيق : أيمن صالح شعبان ، ط١، دار الحديث ، القاهرة ، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م .

٣-أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن : محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي ، ط دار الفكر للطباعة ، بيروت ، (١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م) .

٤-الأنساب: عبد الكريم بن محمد السمعاني ، المحقق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وغيره ، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد ، ط١، ١٣٨٢ هـ – ١٩٦٢ م .

٥-البداية والنهاية: لأبى الفداء عماد الدين ابن كثير–طبعة دار التقوى–القاهرة ٢٠٠٤

٦-البرهان في علوم القرآن: بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار إحياء الكتب العربية ، مصر، ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧ م .

٧-البغوي ومنهجه في التفسير: عفاف عبدالغفور حميد ،رسالة ماجستير بجامعة بغداد ، ثم نشر في مطبعة الإرشاد ببغداد ، سنة ١٩٩٣م .

٨-تاريخ بغداد : أحمد بن على بن أبى بكر الخطيب البغدادى - ط دار الكتاب العربى - بيروت.

٩-التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، طبعة دار سحنون، تونس.

١٠-تذكرة الحفاظ : محمد بن أحمد بن عثمان - شمس الدين الذهبى - ط دار إحياء التراث العربى - القاهرة .

١١-جامع البيان عن تأويل آي القرآن: محمد بن جريرالطبري ، ت:د.عبد الله بن عبد المحسن التركي،ط١، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان ، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م .

١٢-الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله وسننه وأيامه : محمد بن إسماعيل البخاري ، ت :عبدالسلام علوش ،ط١، مكتبة الرشد ،الرياض ،١٤٢٥هـ /٢٠٠٤م.

١٣- الجامع الصحيح المسند بنقل العد الضابط عن العدل الضابط من أول السند إلى منتهاه : مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري ،ط١، دار ابن حزم، بيروت، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

١٤- الدر المنثور في التفسير بالمأثور – السيوطي – ط دار الفكر– بيروت.

١٥- سير أعلام النبلاء: محمد بن أحمد بن عثمان - شمس الدين الذهبى ، ط مؤسسة الرسالة - بيروت.

١٦- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب: عبد الحى بن العماد الحنبلى - ط المكتب التجارى للطباعة -بيروت.

١٧- شرح السنة للبغوي

١٨- الصحيح المسند من أسباب النزول : مقبل بن هادي الوادعي ، مكتبة ابن تيمية – القاهرة ،ط٤، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٧م

١٩- طبقات الشافعية الكبرى : عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى - تاج الدين السبكى - تحقيق عبد الفتاح الحلو - ط عيسى البابى الحلبى ١٩٦٤ .

٢٠- طبقات المفسرين : محمد بن على بن أحمد الداودى - ط دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى ١٩٨٣ .

٢١- العجب العجاب فى بيان الأسباب: أحمد بن على بن حجر العسقلاني، تحقيق: عبد الحكيم الأنيس،طبعة دار ابن الجوزي، الرياض،الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

٢٢- علوم القرآن الكريم: نور الدين محمد عتر الحلبي ، ط١، مطبعة الصباح – دمشق ، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣ م .

٢٣- فتح الباري شرح صحيح البخاري : أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي ، دار المعرفة – بيروت.

٢٤- فضائل القرآن لأبي عبيد القاسم بن سلام ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، الأولى ١٤٠٦هـ.

٢٥- لباب التأويل في معاني التنزيل – لعلي بن محمد الخازن – ط دار الفكر – بيروت.

٢٦- لباب النقول فى أسباب النزول: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي - المكتبة القيمة - القاهرة - بدون تاريخ.

٢٧- مجموع الفتاوى: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني ، ط المكتبة التوفيقية ، بدون تاريخ.

٢٨- المسند : أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني ، ت : شعيب الأرناؤوط وآخرين ، ط١، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

٢٩- معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي : أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي ، المحقق : عبد الرزاق المهدي ، ط١، دار إحياء التراث العربي –بيروت ، ١٤٢٠ هـ .

٣٠- معجم البلدان ، ياقوت بن عبد الله الحموى - ط دار صادر للطباعة والنشر - بيروت ١٩٥٧.

٣١- مناهل العرفان في علوم القرآن: محمد عبد العظيم الزرقاني ، ت :أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٦هـ /١٩٩٦م

٣٢- مقدمة في أصول التفسير: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية ،دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٨٠م

٣٣- النجوم الزاهرة - ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢.

٣٤- وفيات الأعيان: لابن خلكان